شخصيات السرد

تحدثنا، فيما مر، عن المكون الأساسي الأول للمتن الحكائي (الأحداث) ونتناول الآن المكون الأساسي الآخر وهو الشخصيات. ولكي نتعرف على شخصياتنا الحكائية في قصص القرآن أمامنا أكثر من طريق: فهناك الأفعال التي تقوم بها الشخصية، والأوصاف التي توصف بها. وهناك أيضا ما تقوله الشخصية عن نفسها، وما يقوله عنها الآخرون، سواء كانوا معها أو ضدها. وأهم من كل هذا، هناك العلاقات القائمة بين تلك الشخصيات، وهي تقوم بدور كبير في الكشف عن طبيعة الشخصية السردية.

في قصص آدم عليه السلام

يقابلنا ثلاث شخصيات، هي: الملائكة، وآدم عليه السلام، والشيطان.

الملائكة: كائنات مفطورة على الطاعة ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ في سور: البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وطه ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ( ) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ في سورتي: الحجر، وص. فهي كما نرى نماذج للطاعة والتسليم دون مراجعة أو إبطاء.

obeikandi.com

الشيطان: يظهر في هذا القصص نموذجا للعصيان المطلق، والاستكبار، والحقد... خلقه الله من نار السموم. فلم يحجم عن عصيان أمره بالسجود لآدم، وتبجح واستكبر معلنا رأيه ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) ﴾ [سورة الحجر] ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [سورة الإسراء] ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [سورة الأعراف]- غافلا عن ذلك العنصر الكريم الزائد على الطين في آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ في سورتي: الحجر (٢٩) و ص (٧٢) أعماه الحسد لهذا المخلوق، ثم ما لبث هذا الحسد أن تحول إلى حقد طاغ، حين أخرج من الجنة مطرودا من رحمة ربه؛ إذ رأى أن آدم عليه السلام هو السبب في كل هذا، فأعماه حقده، مرة أخرى، عن التوبة والاستغفار، وقد أنظر إلى يوم البعث، فعقد العزم على الانتقام من آدم وذريته، وتبجح أمام ربه مجددا، مقسما ليغوين ذلك المخلوق الذي كرمه الله، ولا يترك في سبيل ذلك طريقا إلا سلكه، ولا جهدا إلا بذله.

وآدم عليه السلام: نموذج ثالث، خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، ثم نفخ فيه من روحه، وأولاه رعايته دائما، فأمر الملائكة بالسجود له تكريما، ثم حذره من إبليس عدوه الأول- وحتى بعد أن أغواه إبليس

بالأكل من الشجرة المحرمة، نجد الله لا يتركه، لأنه لا يتمسك بالمعصية كإبليس بل يتوب عنها، فيتوب الله عليه، ويهديه إلى طريق الجنة إذا أراد أن يعود؛ فهو يرعاه دائما.

فشخصية آدم ليست كالملائكة في طاعتهم المطلقة، وليست كالشيطان في عصيانه المطلق؛ بل هي نموذج متوسط بينهما، لديه استعداد مزدوج لأن يكون مطيعا، أو أن يكون عاصيا؛ لأن يكون خيرا، أو أن يكون شريرا. فهو يترجح بين الحمأ المسنون (مادته التي خُلق منها) وبين ما فيه من روح الله، وميزان ذلك إرادة منحه الله إياها ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [سورة البقرة] ﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) ﴾ [سورة طه]؛ فالله يربي فيه هذه الإرادة بمنعه من الشجرة في الجنة، وبتحذيره من الشيطان فلا ينسى عهد الله. لكن آدم ليس ملَكا، وإن فيه لضعفا يستغله الشيطان، وينفذ منه إليه ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

(٢١) ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى (١٢٠) ﴾ [سورة طه]. فينسى آدم عهد الله إليه، ويضعف أمام الغواية والإغراء بالخلد والملك، وإن كان كل ذلك وهما زينه الشيطان؛ فيزل، لكنه لا يسدر في غيِّه فيستمر على خطئه مستكبرا بل يتذكر، فيعود إلى ربه نادما مستغفرا؛ فيقبله الله، ويتوب عليه.

وحين يهبط آدم عليه السلام وإبليس عدوين لدودين، لا يترك الله آدم، بل يشمله وذريته برعايته وعنايته ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [سورة البقرة] ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف].

وإذا كانت وظيفة الملائكة، في هذا القصص، تنتهي بالسجود لآدم، ولا نجد لها ذكرا بعد ذلك، فإن إبليس تبدأ وظيفته عندها- عند سجود الملائكة الذي يزامن رفضه- تبدأ ولا تنتهي إلى يوم البعث؛ وتبدأ

من ثم علاقة جديدة يدخل فيها طرف جديد، هو ذرية آدم، وإبليس لهم عدو. يدعوهم إلى طريقه فمن سار عليه ونسي عداوته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، ومن عاداه واتبع هدى الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعلى هذا يسير القصص التالي لقصص آدم عليه السلام، يهيمن عليه نموذجان: نموذج الخير (من اتبع هدى الله) ونموذج الشر (من سلك طريق الشيطان) وبينهما صراع دائم.

في قصص نوح عليه السلام

نجد نموذج الخير متمثلا في رسول الله إلى البشر- نوح عليه السلام- الذي أطاع أمر ربه، وصبر على قومه وعلى تكذيبهم إياه واضطهادهم له مدة الرسالة ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا (١٤) ﴾ [سورة العنكبوت]. لم يقعد عن دعوتهم، ومحاولة هدايتهم إلى الحق الذي لا يرون، وإزالة غشاوة الباطل عن قلوبهم، وتبصيرهم بأنوار الإيمان. كان لقومه أخا ناصحا صادقا في نصحه، أخذهم باللين وتلطف معهم، مقابلا اتهاماتهم وتكذيبهم إياه بسماحة النبي وتلطفه، واثقا بالحق الذي جاءهم به مطمئنا إلى ربه الذي أرسله، لا يقابل تبجحهم بمثله، شأن الكبير

obeikandi.com

النفس إذ يتغاضى عن زلات صغار النفوس؛ أملا في إصلاحهم. لكنهم لا يرعوون. فيكشف لهم جانبا من الحقيقة ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ (٣١) ﴾ [سورة هود]. إنه لا يعدهم بشيء لأنه لا يملك شيئا ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) ﴾ [سورة الشعراء]. من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه فقد أبى ﴿ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾ [سورة هود]. ثم تحداهم جميعا ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ (٧١) ﴾ [سورة يونس]. وحين تمادوا في غيهم استنصر بربه ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) ﴾ [سورة المؤمنون] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [سورة الشعراء].

ونجد النموذج المقابل- نموذج الشر- أتباع الشيطان- وهم الملأ المستكبرون من قومه، لا يرون الحق، ولا يشعرون بالخير ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ(٦٤) ﴾ [سورة الأعراف] هذا وصفهم، وهذا فعلهم-

التكذيب- لا عن رأي وحجة وبصيرة، وإنما عن استكبار، واستعلاء، وتجبر. نقرأ قولهم في سورة الأعراف ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) ﴾ ولا يقولون شيئا بعدها. وفي هود يقولون: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ فهو بشر، وأتباعه من السفلة الضعاف، ولا فضل لهم جميعا من مال أو جاه أو سلطان ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) ﴾ [سورة المؤمنون]. وحين غُلبوا بالحجة وضاقت صدورهم عن الحق ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [سورة هود]. تاركين الجدال إلى التحدي، فزعين إلى ما لديهم من قوة وسلطان ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ [سورة الشعراء] هذا هو نموذج الشر يتمثل في المترفين المطموس على قلوبهم، لا يرون حقا، ولا ينكرون باطلا، إنما هي الدنيا، والمجد فيها والعلو والسلطان، فإن كانت رسالة فلتكن لإعلاء هذا السلطان، كلامهم محدود (جهلا) يعتمدون على قوتهم المادية، ولا يقبلون توجيها أو إرشادا.

وثم نموذج ثالث: هم المؤمنون مع نوح، نراهم من منظورين مختلفين: من منظور الكافرين، فهم أراذل، سفلة فقراء، ضعفاء، لا رأي لهم ولا نظر، ففي سورة هود نقرأ ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ وفي سورة هود يعرض نوح نظرتهم لأصحابه ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا ﴾.

ونراهم من منظور نوح عليه السلام: مؤمنين، مهتدين، عرفوا الحق فاتبعوه ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا (٢٩) ﴾ [سورة هود] ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) ﴾ [سورة الشعراء]. وهكذا لا نسمع منهم شيئا، وإنما نعرفهم من خلال ما يقال عنهم، أو من خلال ما يوصفون به، دون أن يظهروا أو أن يظهر من أفعالهم غير الإيمان والتسليم.

في قصص هود عليه السلام

نجد النموذجين المتقابلين: الخير، والشر. نموذج الخير المتمثل في نبي الله هود، المرسل من ربه بالهدى إلى قومه، ليدعوهم إلى ترك

سبيل الشيطان، واتباع هدى الله- في صبر، وحلم، وإحسان، وإغضاء عن سفههم وسوء أدبهم، ثم في حسم، وإنذار، وتوعد.

وفي المقابل نجد نموذج الشر متمثلا في الملأ المستكبرين، المكذبين، المستهزئين من قومه، إنهم خلفاء الملأ من قوم نوح، أعطوا بسطة في الأبدان، وقوة في السلطان ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً (٦٩) ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ (٥٢) ﴾ [سورة هود] ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٣٣) ﴾ [سورة المؤمنون] ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾ [سورة الشعراء]؛ أنجز فيهم الشيطان وعده؛ فقادهم إلى الكفر والبطر، فكانوا يستخدمون قوتهم في التفاخر والتباهي والعبث ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [سورة الشعراء] ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً (١٥) ﴾ [سورة الشعراء].

هكذا صفتهم: ضخام الأجسام، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، إنما يتهجمون في شراسة ورعونة على ما يخالف مألوف قلوبهم، وما اعتادت عقولهم ﴿

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا (٧٠) ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [سورة هود]. فتحدوا- بجهلهم- نبي الله دون تدبر لما جاء به ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [سورة الأعراف] إغلاقا لباب النصح والإرشاد من نبي الله لهم، وتكذيبا لإنذاره، واستهزاء بصدقه فيما جاء به من ربه، فكان هلاكهم، ثم صفتهم بعد موتهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [سورة القمر]. أو ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(٢٠) ﴾ [سورة الحاقة]. لضخامة أجسامهم، وقوتهم التي لم تغن عنهم من الله شيئا.

وأما النموذج الثالث، الذين آمنوا مع هود فلم يذكروا إلا مرتين: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [سورة هود].

في قصص صالح عليه السلام

النموذجان ذاتهما: الخير المتمثل دائما في المرسل بالهدى من الله إلى قومه- نبي الله صالح، بصفات النبوة الثابتة. يدعو إلى الله، و يصطبر

على دعوته، وعلى قومه، ولا ييأس من هدايتهم. هذه وظيفته يؤديها واثقا بالحق الذي يدعو إليه، مطمئنا بالله الذي أرسله.

ونموذج الشر المتمثل هاهنا في ثمود، قوم صالح عليه السلام. أصحاب الحضارة العمرانية الواضحة، إذ يقول لهم نبيهم: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا...[الآية] (٧٤)﴾ [سورة الأعراف] ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود]. و يقول لهم ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [سورة الشعراء]. كانوا في سعة من العيش، ونعمة، وترف، لكنهم كسابقيهم لم يشكروها، بل كفروا بها، واستكبروا، وكذبوا وعتوا عن أمر ربهم. وأنكروا نبوة صالح، وهزءوا بدعوته، وتعجبوا لصدورها عنه وكان يؤمل فيه الخير من قبل! لقد فسدت فطرتهم لطول ملازمتها للباطل ومجافاتها للحق، فصارت ترى الحق باطلا، والباطل حقا؛ ثم اشتطوا فطلبوا آية؛ فجاءتهم؛ فكذبوا بها. وتبجحوا بطلب العذاب، وتآمروا على قتله وأهله.

والنموذج الثالث موجود هنا بعوته. حين اتجه إليهم الملأ الذين استكبروا من قوم صالح يتهددونهم، وهم المستضعفون: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أجابوا في ثقة المؤمن ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ إنهم أقوياء بإيمانهم. والمستكبرون يشعرون بهذه القوة: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ [سورة الأعراف]. وكأنهما فريقان متساويان، متقابلان.

في قصص لوط عليه السلام

هنا نجد نموذجي الخير والشر، ينضاف إليهما نموذج الملائكة، الذي رأيناه من قبل، وكانت كائنات مفطورة على الطاعة والتسليم دون إبطاء. وهنا نراهم قليلي الحديث، يقولون حسب الحاجة، ويبلغون أمر الله دون تزيد. جاءوا إبراهيم، فأعد وليمته وقدمها إليهم، وجلس ينتظر أن تمتد أيديهم إليها..... كل هذا دون أن يدور بينهم حوار يعرفهم فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [سورة هود] ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) ﴾ [سورة الحجر].

ثم يتداخل حديثهم في حديث الرحمن سبحانه ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [سورة هود]. فهم كما نرى مؤدون عن الرحمن، منفذون إرادته ومشيئته، إنهم لا يفعلون شيئا من تلقائهم، ولا يقولون من عندهم، إنهم ممثلو الرحمن في الأرض رسلا إلى البشر، إيمانهم بالله مطلق ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾ [سورة هود]. ثم يحدث التداخل مرة أخرى، ويتأكد تمثيلهم لله وقيامهم بأمره ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [سورة هود]. وفي سورة الحجر ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾ فمن الذي يقدر غير الله.

ويعودون إلى صمتهم مرة أخرى عند لوط عليه السلام الذي ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) ﴾ [سورة هود]. وتركوه في حيرته وضيقه، يجادل فيهم قومه، حتى ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...[الآية] (٨١) ﴾ [سورة هود].

ونجد نموذج الخير في لوط الرسول عليه السلام، الذي جاء بالخير إلى قومه، يدعوهم إلى ترك ما هم فيه من شذوذ، وينذرهم عاقبة ذلك، ويدافع عن ضيفه بكل ما يملك.

ونموذج الشر في قومه: قوم شواذ، منحرفو الفطرة، فاسدو المزاج، مسرفون على أنفسهم، ظالمون لها، ابتدعوا فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين، فيقول لهم نبيهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٩]. يدعوهم إلى الهدى فلا يزيدون إلا عتوا، وتبجحا، وضلالا ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾ [سورة الأعراف]. وفي سورة النمل: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ بعد أن هددوه ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ(١٦٧) ﴾ [سورة الشعراء]. لكنهم لم يصبروا فاستعجلوا العذاب: ﴿ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ [سورة العنكبوت]؛ فالقلوب لاهية، والعقول مريضة، والشهوة فائرة حائرة.

في قصص شعيب عليه السلام

النموذجان المتقاطبان: الخير، والشر- شعيب عليه السلام نموذج الخير: كسابقيه من الأنبياء، ويزيد فصاحة في مراجعته لقومه، وحسن تأتيه في دعوته لهم إلى الإيمان برسالته، ومع ذلك يقابلنا لأول مرة اتهام قوم لنبيهم بمثل هذا الاتهام: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ... [الآية] (٩١) ﴾ [سورة هود].

وقومه، نموذج الشر، أتباع الشيطان، مشركون، مفسدون في الأرض يبخسون الناس حقوقهم، بتطفيف الكيل ونقصان الوزن، ويقطعون السبيل ويخيفون المارة فيه، ويعبدون الأيكة، ويصدون الناس عن سبيل الله، ويفتنونهم عن الدين الحق. حين دعاهم شعيب عليه السلام إلى انتظار حكم الله، ولكلٍ دينه الذي يدين، لم يرضوا أن يكون للحق وجود، وتبجحوا بقولهم: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...[الآية] (٨٨) ﴾ [سورة الأعراف]. فإما كفرٌ معهم، أو إخراج من بينهم. ومن قبل سخروا منه ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [سورة هود]. هكذا قادهم هواهم،

وهكذا تحجرت عقولهم. فلم تعد تعقل ولا تتدبر. فلم يبق إلا الهزء والسخرية ﴿ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ ثم أعلنوا موت قلوبهم، وجمود عقولهم عن الفهم الصحيح، واختصروا الجدل متكئين على قوتهم ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) ﴾ [سورة هود]. وقالوا كما قال الذين من قبلهم: ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) ﴾ [سورة الشعراء]. ومن ثم يظهر الجهل، وتظهر الجهالة والاستهتار ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) ﴾ [سورة الشعراء].

والنموذج الثالث: يتحدث عنهم شعيب عليه السلام، فهم منه، وهو منهم ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ...[الآية] (٨٦) ﴾ [سورة الأعراف]. ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ...[الآية] (٨٧) ﴾ [سورة الأعراف]. ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا... [الآية] (٨٨) ﴾ [سورة الأعراف]. ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ...[الآية] (٩٤) ﴾ [سورة هود].

openkanal.com

في قصص موسى عليه السلام

في هذا القصص نلتقي بشخصيتين رئيسيتين: موسى عليه السلام، وفرعون. موسى نموذج الخير، المرسل بالهدى من الله إلى آل فرعون ليساعدهم على الخلاص مما هم عليه من كفر وفساد. رعاه الله منذ مولده ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) ﴾ [سورة طه]. وآتاه العلم والحكمة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) ﴾ [سورة القصص] وفيما بعد ذلك يتجلى أثر هذا العلم وتلك الحكمة فيما يأتي به من أفعال، أو يجرى على لسانه من أقوال؛ فهو عليه السلام رابط الجأش، ثابت الجنان، بليغ في كل حواراته مع ربه؛ في التعبير عن أهم متطلبات الدعوة ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [سورة طه]. ومحاذير يخشاها ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [سورة الشعراء]. وحين سُئل عن عصاه ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) ﴾ [سورة طه]. وكان ما

obeikandi.com

يزال يعاني رهبة اللقاء الأول بربه. وهو كذلك بليغ في كل حواراته مع فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [سورة الشعراء]. تتجلى هنا بلاغة موسى عليه السلام في رده على فرعون حيث لم يراع ترتيب كلامه فبدأ بتفنيد اتهامه له بالكفر " بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربئا بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة، ثم كر على امتنانه له بالتربية، فأبطله من أصله "[١]؛ فنعمة فرعون التي يمنها على موسى لم تكن في حقيقة أمرها غير نقمة ابتُلي بها قومه بنو إسرائيل، إذ لولا اضطهاده لهم، وما كان من تقتيله لأبنائهم، لما ألقي موسى في اليم، ولما وصل إلى بيت فرعون وتربى فيه!

وأما هربه من الجان الذي انقلب عن عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [سورة القصص: ٣١] . فلأنه كان لم يستوعب الأمر بعد، وما زال الغموض والرهبة يملآن جوانب اللقاء الأول بالله رب العالمين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا الخوف الشديد الذي انتابه، سيتحول إلى طمأنينة شديدة فيما بعد،

وهو يواجه سحرة فرعون لا بشيء غير تلك العصا التي رأى من أمرها ما رأى. وثم موقف آخر كان أولى بالخوف والهلع، لكنه كان فيه ثابتا، وذلك حين تبعهم فرعون وجنوده، وأيقن بنو إسرائيل أنهم مدركون ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ وأما إلقاء الألواح، وأخذه برأس أخيه يجره إليه (في سورة الأعراف: ١٥٠) فإنما كان ذلك غضبا لله مما فعل بنو إسرائيل في غيبته، حين عاد من ميعاد ربه فوجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري، ذلك الغضب الذي يتبدى لنا مرة بعد مرة في قصته مع العبد الصالح، فبعد أن وعده بأن يكون متعلما صابرا ولا يعصي له أمرا، نجد طبيعة الغضب للحق تنسيه هذا الوعد، وكان بعد لم يعرف الحكمة من أفعال الرجل. لقد كان يرى الحق حقا فيؤيده، ويرى الباطل باطلا فينكره، ويغيره إن استطاع. إنه ليس نموذج الزعيم المندفع العصبي المزاج[٢]، ربما اندفع مرة في شبابه فقتل عدوه القبطي، حين رآه يقاتل الذي هو من شيعته، لكنه لم يلبث أن عاد إلى ربه نادما على ما فعل ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ وكان ذلك منه غضبا للحق الذي يراه ويؤمن به، فهو لا يرضى عن ذلك القهر والاضطهاد الذي يمارسه قوم فرعون مع بني

إسرائيل. وكما رأينا فقد صدرت أفعاله عن حكمة آتاه الله إياها، منذ مطلع شبابه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا... [الآية] (١٤) ﴾ [سورة القصص].

وفرعون، نموذج الشر. المعارض الأول لدعوة موسى عليه السلام. من صفاته التي تتجلى في القصص القرآني من خلال علاقاته بالآخرين: الضعف الشديد! فلم يقاوم الدعوة الجديدة بقوة، وانما بخور بين، وخوف كامن من مجهول، ففي رده على موسى يتساءل فحسب، وكأنه يريد أن يعرف من أمر ذلك الرب ما يرجح عنده أحد أمرين: فهل هو (فرعون) الإله الأوحد؟! أم أن كل هذا محض كذب نشأ عليه، وثم إله آخر يستحق أن يُعبد؟! ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾ [سورة الشعراء] ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) ﴾ [سورة طه] ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) ﴾ [سورة الأعراف]، وحين يشتد غضبه لا يفعل شيئا غير أن يتهمه بالسحر، ويتحداه بسحرته ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) ﴾ أو أن يهدده بالقول ولا يتحرك لفعل شيء مما يقول ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

بينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [سورة غافر] ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [سورة الشعراء]. ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) ﴾ [سورة الشعراء]. هكذا دائما يهدد بلسانه ولا يفعل شيئا بيده، كأنما كان يخاف الاقتراب من موسى لأمر ما جلل يتردد في صدره... وهو يبدو في مواقف كثيرة قليل العلم، ضعيف الحجة، بليد الذهن: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ...[الآية] (١٢٣) ﴾ [سورة الأعراف]. و سورة طه (٧١) وفي سورة القصص: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ وفي سورة الشعراء: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ لذلك يعتمد كل الاعتماد على الملإ من قومه يوجهونه كيف شاءوا ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [سورة الأعراف].

وثم السحرة، شخصياتهم واضحة محددة، واثقون مما عندهم من علم، سواء في حال اتباعهم فرعون: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ

نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) ﴾ [سورة طه]. أو في حال إيمانهم بالله رب العالمين: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴾ [سورة طه]. هكذا وكأنهم مؤمنون من زمن بعيد، ويعرفون كل شيء عن هذا الدين الذي اتبعوه وقدموا أنفسهم رخيصة في سبيله.

وآل فرعون، شخصيات خفية، تنفث سموم أفكارها في أذن فرعون، فتقوده إلى هلاكه ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]. يرددون كلام المترفين في كل عصر لينهوا الموقف في سرعة ودون جدال كثير ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) ﴾ [سورة القصص]. وهم فوق ذلك حانثون في

وعودهم ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) ﴾ [سورة الأعراف].

وبنو إسرائيل، هَلعون، شاكُون في نصر الله لهم ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [سورة الأعراف]. مترددون في إيمانهم، يعبدون الله تارة، ويطلبون غيره أخرى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ [سورة الأعراف]. قلة عقلهم ظاهرة، وجهلهم بيِّن، وإضلالهم من أسهل الأشياء ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ [سورة الأعراف]. وفي سورة طه ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) ﴾.

obeikandl.com

وفي مدين نقابل أبا المرأتين بفطنته الواضحة وذكائه الوقاد، الذي يتجلى في فهمه قول ابنته على الوجه الذي أرادته هي، لا على ظاهر اللفظ ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [سورة القصص].

وثم شخصية هارون أخي موسى، تقابلها دائما في هدوئها الشديد وورعها وتقواها. حين أخذ موسى برأسه يجره إليه ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) ﴾ [سورة الأعراف]. وفي سورة طه: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ في سماحة ولين شديدين.

في قصة يوسف عليه السلام

هاهنا يقابلنا عدد كبير من الشخصيات: يوسف عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ

كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) ﴾ هذا يوسف القريب إلى قلب أبيه ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا...[الآية] (٨) ﴾ يحكي لأبيه رؤياه، فيحذره من إخوته، الذين يكيدون له. مع ذلك، فيجعلونه في غيابة الجب؛ فيلتقطه بعض السيارة؛ فيبيعونه لمصري يؤمل فيه الخير. نحن هنا أمام غلام يتعامل ببراءة مع الآخرين الذين تربطهم به علاقات: علاقة حب من أبيه، وعلاقة حسد وكراهية من إخوته تستمر حتى نهاية القصة حين ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ...[الآية] (٧٧) ﴾ وهناك علاقة أخرى تتمثل في رعاية ربه له حين ألقي في الجب ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ على اعتبار أن الوحي كان ليوسف تثبيتا له في هذا الموقف الدقيق.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ وإحسانه فيما يلي: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾: شابٌ يافع، وأبوابٌ مغلَقة، وامرأة تعرض نفسها... لكنه لا يتلجلج، ولا يراجع نفسه لحظة واحدة، وهي، إلى ذلك، السيدة الآمرة الناهية... بل يردها في وضوح، وصرامة. إن سلوكه محدد قبلا؛ لقد رأى برهان ربه، رآه هنالك حيث ألقي في الجب- ﴿

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فلم يمل قلبه لشيء من ذلك، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) ﴾ [سورة القلم]؛ فهو لم ينبذ بالعراء، لتدارك نعمة ربه له. وامرأة العزيز نفسها تقول في اعترافها بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ حركة الفوران تبدأ باستباقهما الباب وقدها لقميصه غيظا منه، وتستمر حين يلفيا سيدها لدى الباب ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ لكن يوسف لم يفعل، بل لم تحدثه نفسه بشيء من ذلك؛ فلم يتردد في وصف ما كان: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾.... ثم كان ما كان من أمر الشاهد من أهلها، والعزيز، ونسوة المدينة.

أمامنا الآن شاب يافع، يتصرف بحكمة مع الآخرين الذين تربطهم به علاقات: علاقة الرغبة من امرأة العزير، يقابلها رفضه لتلك الرغبة. وعلاقة الإكبار من نسوة المدينة، ووجهها المقابل هو غيرتهن من امرأة العزيز، التي تنتقم منهن، وتطلب مساعدتهن لها فيما تريد من يوسف... ولكن ثم دائما رعاية ربه له ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾.

وهناك علاقات أخرى: بين العزيز وامرأته، العزيز يتعامل مع الأحداث بحكمة شديدة، يثق في امرأته ثقة مطلقة، وتستمر هذه الثقة يعززها معرفته بيوسف منذ البداية حتى ﴿ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ وهنا لا تتحول هذه الثقة بل تستمر... فلا نسمع منه شيئا إلا بعد أن هدأت الأحداث: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾... وامرأته حضورها طاغ، نراها ضعيفة أمام رغبتها العارمة؛ راودت يوسف وقد نشأ في بيتها، كابنها.. قوية الأعصاب لم تتلجلج أمام زوجها وقد رآها في موقف دقيق، وإنما بادرته بذهن واع، وبديهة حاضرة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ وتمادت في غيها لترد على مكر النسوة، ثم تعلن في صراحة: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾..

لكن، لعله موقف عابر، ولا ينبغي أن ننساق وراء حكم الهوى الذي يلذ له تشويه المرأة وسمعتها؛ فالذي يظهر من القرائن أنها كانت شريفة في قومها، يثقون فيها وفي عفتها، بدليل شهادة الشاهد من أهلها؛ فلو أنها كانت متهمة عنده ما شهد بما شهد به، فكأنه كان

متأكدا من عفتها، ومن وقوع يوسف- الشاب الحدث- في الخطأ وهو الأقرب إلى تصور العقل... ثم نجد استنكار نسوة المدينة وقوع هذا الأمر منها.. وكأنهن فوجئن به، ولو أنه كان عهدهن بها لما اهتممن له.. حتى رأين ما تعاني- برؤيتهن يوسف؛ فعذرنها.. لقد كان بابا مؤقتا للغواية انفتح، وولجته امرأة العزيز ولم تستطع العودة فتمادت في الغي مدفوعة بقوى غريزية، تريد تأكيد أنوثتها وطغيانها أمام نسوة المدينة، ولا تريد أن تسلم بالهزيمة أمام هذا الفتى الحدث... لكنها تعود لرشدها بعد ذلك فتعترف في ثبات- تمتعت به دائما- بخطئها ونفسها الأمارة بالسوء... ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾.

ولبث في السجن بضع سنين، ظهر فيها علمه بتأويل الأحاديث، وحكمته، وإيمانه بالله وحده، ومن ثم دعوته لصاحبي السجن إلى إفراد الله بالعبادة، واستخلصه الملك لنفسه ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ وهكذا نبأهم بأمرهم، وسامحهم بقلب كبير، إنه كان من المحسنين.

في قصص سليمان عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [بسورة ص]، وكان من أوابيته ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ ونحن نفهم من الآيات، أن الصافنات الجياد كانت الفتنة التي فُتن بها سليمان ثم آب إلى ربه ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾ ولنا أن نتساءل عن علاقة الدعاء الذي دعا به: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾- علاقة ذلك بالفتنة التي فُتِنها، فالمنطقي أن تكون التوبة عن شيء متضمنة الاعتذار عن ذلك الشيء، وهو استغفر ربه ثم استوهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. فهل استوهبه ذلك الملك لأنه عقر الصافنات الجياد- مع حبه الشديد لها- تقربا إليه، فكان الملك الذي وُهِبه بديلا لتلك الخيل، يقوم

obeikandl.com

بوظيفتها ويزيد عليها من عطاء ربه ؟ (على مشهور التفاسير). أم أنه استوهبه ذلك الملك بعمله الذي يظهر فيه أوابيته، وشكره لله، حين طلب رد الصافنات الجياد، وطفق يمسح على سوقها وأعناقها حبا لها، وحنوا عليها. وعرفانا بفضل الله ونعمته عليه، ويسأل الله أن يفرده بهذه النعمة وما تنطوي من خير، هو عنده في سبيل الله؛ فزاده الله: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) ﴾ أما الجسد: فلعل هذا الوصف كان له بسبب جلوسه لرؤية الخيل، محبا ذلك عن ذكر ربه، فكان كالجسد الذي لا روح فيه.... والله أعلم. فنحن مع سليمان عليه السلام، مع عبد أواب آتاه الله ملكا واسعا، فسخر له الريح والشياطين [سورة ص (٣٦- ٣٨)، وسورة سبا (١٢)] وآتاه علما وعلمه منطق الطير..... سورة النمل (١٥- ١٦).

ونحن هنا نقابل شخصيات من غير البشر، تسهم بدور كبير في الكشف عن طبائع شخصية سليمان، فهناك النملة ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [سورة النمل]. فالنملة كائن عاقل يفكر ويقول: إذ تحذر النمل من تحطيم سليمان وجنوده لهم، وهم لا يشعرون، فذلك منهم

ليس عن عمد، فهم ليسوا من الظالمين. وسمعها سليمان فشكر ربه. وهناك الهدهد ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) ﴾ [سورة النمل]. فلاحظ غياب الهدهد، ولم يتساهل بل توعده بالعذاب أو الذبح، إن لم يأته بسلطان مبين، وقد جاءه به، فلم يشعره برضاه الكامل عنه ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ وهو يعلم صدقه، ولذلك يرسله إلى سبأ بكتاب منه: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ بأمر صاحب القوة والسلطان. تقول ملكة سبأ: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً... [الآية] (٣٤) ﴾ وحين ترسل إليه الهدية ينتفض غضبا ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ وكان يتحدث عن فضل الله عليه، في تعريف مباشر منه لشخصيته ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ وهنا أراد أن يري ملكة سبأ هذا الفضل من الله، فنقل عرشها عنده ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ ربي... [الآية] (٤٠) ﴾.

ومن صفاته كذلك أنه عليه السلام، مع ما أوتي من علم، إلا أن هناك علما كثيرا لم يحط به. يقول له الهدهد ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ فلم يكن يعلم شيئا من أمر هؤلاء القوم.

وثم ملكة سبأ: في وصف الهدهد لها ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ كانت تشرك الملأ من قومها في الرأي، وكانت هي ذات رأي ودهاء، حيث قالت رأيها في كتاب سليمان ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾. وحيث قالت رأيها في الملوك ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً... [الآية] (٣٤) ﴾ وحيث رأت أن تختبر سليمان بهديتها ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ وحيث لم تؤمن إلا بعد اليقين. فحين رأت عرشها عند سليمان أوشكت ولم تسلم، ثم عندما رأت الصرح الممرد من قوارير، وعلمت أن ذلك ليس من فعل البشر ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤) ﴾.

في قصة عيسى ابن مريم

عليهما السلام

نجد نموذج الخير: عيسى عليه السلام ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا... [الآية] (٢١) ﴾ [سورة مريم] فكان آية منذ ميلاده، وكان رحمة ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [سورة مريم] ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [سورة الأنبياء]. هكذا ارتبط ميلاده بالمعجزة. وجاء بني إسرائيل مؤيدا كذلك بمعجزة

من الله: ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ... [الآية] (٤٩) ﴾ [سورة آل عمران].

وفي قوله ﷺ ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [سورة المائدة]. هنا نرى نفسا محملة بالرحمة للإنسانية جمعاء. وحين طلب الحواريون مائدة ليأكلوا منها وتطمئن بها قلوبهم ويعلموا أنه قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. أسرع يطلب إنزال المائدة من ربه رغبة خالصة في إيمانهم، وذلك رحمة بهم.

وثم مريم ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [سورة مريم]. بما يحمل من معاني الإشراق والاقتراب من النور والهدى، ثم كان ما كان من حملها وتمنيها الموت قبل هذا، ثم إتيانها قومها تحمله بعد أن رأت المعجزة ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [سورة الأنبياء]. وكانت قد تقبلها ﴿ رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [سورة آل عمران].

وفي قصة زكريا التي ترتبط بقصة عيسى عليه السلام، نجد زكريا عليه السلام شيخا ضعيفا. وحيدا في قومه، علاقته بربه وثيقة يناجيه في حب وثقة ويدعوه رغبا ورهبا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [سورة مريم]. و بعدها حين يُبشر بيحيى يطلب آية؛ فهو بشر وهذا شعور طبيعي لاجتماع النقيضين: الثقة الكبرى بقدرة ربه على أن يهب له غلاما، والقلق لطبيعة الحال من كبره وعقم امرأته.

في قصة قارون

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ.... [الآية] (٧٦) ﴾ [سورة القصص]. كان إسرائيليا باغيا على قومه، ثريا واسع الثراء، مغرورا بماله، متكبرا على النصح والعظة، مصرا على الفساد، لا يأتي من كلامه إلا قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٧٨) وبعد ذلك يُعرض

في لقطة سريعة ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ (٧٩) كانت فتنة لقومه؛ فانقسموا إلى فريقين:

الضعفاء الذين تمنوا مثل ما عنده ظانين أن ما هو فيه رضا من الله عليه. ولم تزل غشاوة أبصارهم إلا بعد هلاكه؛ فعلموا أن الله يوسع الرزق، ويقدره بحسب الحكمة والمشيئة، لا بحسب الكرامة والرضي، ولا بحسب الهوان.

والفريق الآخر: المؤمنون، العقلاء من قومه ﴿ الَّذِين أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ يعلمون الحق، ويفرقون بين الخير الحق الذي يدوم، والخير الوهم الذي ما يلبث أن يزول. حاولوا تبصير الضعفاء بالحقيقة التي غابت عنهم، فالمراد هو ثواب الله في الآخرة، أما في الدنيا فذاك ابتلاء لا رضى.

تعقيب

نخلص من هذا العرض لشخصيات السرد بنتيجة واضحة، هي سيطرة نموذجين متقابلين على شخصيات القصص: نموذج الشر، ويبدأ مع قصة الخلق الأول، متمثلا في شخصية إبليس، ويمتد إلى بقية القصص متمثلا في أتباعه السائرين على دربه من المكذبين الضالين.

ويقابله نموذج الخير، الذي يمثله دائما أنبياء الله المرسلون بالهدى منه تبارك وتعالى، وأتباعهم من المؤمنين المهتدين.

ونستطيع، مستضيئين بالنموذج العاملي[3] عند جريماس Greimas أن نضع العلاقات القائمة بين هذين النموذجين في الشكل التوضيحي التالي:

(الدعوة)

يقوم بها الرسول

↙ ↘

يتبعه المهتدون — يكذب به الضالون

(مساعد) — (معوق)

⇩ ⇩

(إنجاء) — (إهلاك)

حزب الله — حزب الشيطان

ومن خلال هذا الرسم نستنتج وجود نوعين من العلاقات:

علاقات بين البشر وبعضهم: كعلاقة الرغبة: رغبة الأنبياء في هداية

obeikandl.com

أقوامهم، والخلاص بهم من حبائل الشيطان، ورغبة المكذبين- اتّباعا لرغبة قائدهم إبليس- في الخلاص من المؤمنين، ورغبة المؤمنين في هداية الضالين.

وعلاقات بين الله وأنصاره: الرعاية، والإنجاء من مكر المكذبين وبطشهم، والتمكين لهم.

وبين الله تعالى وحزب الشيطان من الكافرين المكذبين؛ اللعنة والإهلاك في الدنيا والآخرة.

obeikandl.com

الهوامش

(١) الزمخشري: الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ط٣ القاهرة ١٩٨٧: ٣/ ٣٠٦

(٢) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، ط١١، ١٩٨٩، ص ٢٠٠

(٣) هذا النموذج وضعه **Greimas** معتمدا على الفصل السادس بصفة خاصة من كتاب بروب: "مورفولوجيا الحكاية الخرافية " حيث استطاع من خلاله بلورة نموذج من ستة محاور متضمنة في ثلاث علاقات رئيسية، هي علاقة الرغبة **Désir** وعلاقة التواصل **Communication** وعلاقة التنازع **Lutte**. انظر، **Jean-Michel Adam, Le récit, P. 59 - 61**، واعتمد **Todorov** على هذا النموذج في تحليله لنسق العلاقات في رواية " العلاقات الخطيرة " انظر: **Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, P. 138 - 144** والأدب والدلالة، ترجمة محمد نديم خشفة، ط١، ص: ٥٠

obeikandl.com